

الفصل الأول

أضواء على حياة السيدة عائشة

مولد السيدة عائشة ونشأتها:

لاخلاف فى أن السيدة عائشة رضى الله عنها ولدت بمكة . وقد ولدت فى السنة السادسة للبعثة النبوية الشريفة، وذلك لأن النبى ﷺ خطبها بمكة وهى فى سن السادسة^(١) بعد مضى سنتين - أو قريباً من ذلك - من وفاة السيدة خديجة التى كانت قد توفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات^(٢)، ثم بنى بها ﷺ فى شوال على رأس ثمانية أشهر من هجرته إلى المدينة^(٣). وهى بنت تسع سنوات^(٤)، وتوفى وهى بنت ثمانى عشر سنة .

وقد نشأت نشأة عربية أصيلة، إذ دفعها أبوها - كعادة أشراف العرب - إلى من يقوم بتربيتها من عرب البادية، فتولى تربيتها جماعة من بنى مخزوم، وأكسبتها حياة البادية النضارة والفصاحة والصفات العربية الأصيلة، كما نشأت أيضاً نشأة إسلامية صميمة، إذ ولدت بعد انبثاق نور الإسلام، وفى بيت مسلم، وكان أبوها الصديق أول من أسلم من الرجال وكذلك كانت أمها أم رومان من المسلمات الأوائل وقد دخلت السيدة عائشة الإسلام مع أختها أسماء بعد أقل من عشرين إنساناً دخلوا الإسلام^(٥)، وبذلك تعد من المسلمات الأوائل .

نسبها وأسرتها:

تتنسب السيدة عائشة إلى قبيلة عربية مجيدة هى قبيلة «تيم» من أفخاذ قريش التى اشتهرت بالشجاعة والنجدة والذود عن الحمي، وعرفت بالكرم، وقامت تجارتها على الأمانة ورفق المعاملة، وعاشت على حظ طيب من الثراء . وقد أجلت قريش - زعيمة

(١) البخارى ٢٠١/٦ - ٣٤٤٩/٢٠٢

(٢) البخارى ٣٠٢/٦ - ٣٤٥١/٣

(٣) ابن سعد ٣٩/٨ - ٤٠

(٤) البخارى ٢٠٢/٦ - ٣٤٥١/٢

(٥) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٢٥٤ .

العرب آنذاك - هذه القبيلة، فكانت في دار أحد كبار رجالاتها - وهو عبد الله بن جدعان - حلفا ينصر المظلوم وينجد المهفوف ويعين الضعيف، وهو (حلف الفضول)^(١)، كما عهدت إلى أحد فضلائها - وهو أبو بكر الصديق - بأمر من أهم أمور الحياة في ذلك العصر - وهو تسوية الدم وأداء المغارم والديات^(٢).

ولقد ورثت السيدة عائشة كثيراً من عناصر الفخار العربي التي توفرت في هذه القبيلة، كما اعتمدت في خصوماتها - إلى حد كبير - على مقومات السيادة والشرف التي يقوم عليها نسبها.

أما عن أسرة السيدة عائشة فقد كانت من أعرق الأسر العربية وأكرمها فهي أسرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي^(٣). ومن الواضح أن نسب أبي بكر الصديق يلتقى ونسب النبي ﷺ عند مرة بن كعب^(٤)، فالسيدة عائشة تنحدر من أصل شريف.

وأم أبي بكر هي أم الخير سلمى بنت صخر بن عمر، وهي بنت عم أبي قحافة، وقد أنجبت منه أبا بكر في السنة الثانية - أو الثالثة - من عام الفيل، فهو أصغر من النبي ﷺ بنحو عامين، وكانت أم الخير من المبايعات^(٥).

وقد بنى أبو بكر بزوجتين في الجاهلية وزوجتين في الإسلام، فأما زوجته في

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ص ١٣٣ - ١٣٤

(٢) أسد الغابة ٣ / ٣١٠.

(٣) الاصابة ٤ / ١٦٩، أسد الغابة ٣ / ٣٠٩، سيرة ابن هشام ١ / ٢٤٩، ابن سعد ٨ / ٣٩، سير النبلاء ١٠ - ١١.

(٤) سيرة ابن هشام ق ١ ص ١

(٥) أسد الغابة ٣ / ٣٠٩، والروض الأنف ١ / ٢٨٨

الجاهلية فهما: قيلة (وقيل: قتيلة) (١) بنت عبد العزى بن عبد أسد، وهى أم ابنه عبد الله وابنته أسماء، وقد طلقها أبو بكر فى الجاهلية (٢)، ثم تزوج بعدها أم رومان وهى أم ابنه عبد الرحمن وابنته عائشة. وأما زوجته فى الإسلام فهما: أسماء بنت عميس. وهى أم ابنه محمد، ثم حبيبة بنت خارجة وقد مات عنها أبو بكر وهى حامل؛ فولدت بعد موته أم كلثوم (٣). وعلى هذا فقد كان للسيدة عائشة أخ شقيق واحد هو عبد الرحمن، لامها أم رومان، وأخوان غير شقيقين هما عبد الله ومحمد، وأختان غير شقيقتين هما أسماء وأم كلثوم.

وأسماء وعبد الله هما أكبر أبناء الصديق، وهما شقيقان، وكانا على درجة عالية من الإيمان فى حين كانت أمهما قتيلة كافرة، ولهما مواقف رائعة فى نصرة الإسلام. فعبد الله هو الذى كان يأتى النبى ﷺ وأباه الصديق كل ليلة بالطعام وأخبار قريش حينما كانا مختفيين فى غار ثور (٤). وأسماء هى «ذات السطاقين»، وقد دخلت الإسلام فى أيامه الأولى، وتزوجت الزبير بن العوام، وهو ابن عمه الرسول ﷺ صفية بنت عبد المطلب، وكان قد أسلم وهو صبي، وهاجر مع زوجه أسماء وهى حامل بعبد الله، فولدته بقاء، وهو أول مولود فى الإسلام، وعاشت طويلا نحو مائة عام، وكفى بصرها فى أواخر حياتها، ويحفظ لها التاريخ - ضمن ما يحفظ من مناقبها - كلمتها الخالدة لابنها عبد الله بن الزبير وقد حوَّص وحَم به القضاء: «يا بني، لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها» (٥).

أما عبد الرحمن، فهو شقيق عائشة من أم رومان، وقد أسلم فى هدنة الحديبية

(١) كتاب نسب قريش ٢٧٦، تاريخ الطبرى ٤/ ٥٠.

(٢) الحاكم ٢/ ٤٨٥.

(٣) تاريخ الطبرى ٤/ ٥٠ نسب قريش ٢٧٥ - ٢٧٨.

(٤) أسد الغابة ٣/ ٢٩٩.

(٥) انظر فى سيرة أسماء: أسد الغابة ٧/ ٩ - ١٠.

وحسن إسلامه بعد أن كان من كفار قريش فى بدر وأحد. مات فجأة، ودفن بمكة سنة ٥٣ هـ (١).

وأما محمد، فأمه أسماء بنت عميس الخثعمية وهى أخت ميمونة أم المؤمنين، وأخت لبابة زوج العباس عم النبى ﷺ، وكانت قد تزوجت جعفر بن أبى طالب وأسلما وهاجرا إلى الحبشة وولدت له هناك محمدا وعبد الله وعونا، ثم هاجرا إلى المدينة، ولما استشهد زوجها جعفر الذى لقب «بالطيار» وذلك فى مؤتة، تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له ابنه محمداً بالبدياء بذى الحليفة فى الطريق إلى حجة الوداع، فهو أصغر أخوة السيدة عائشة من الرجال، وليست له صحبة - كما هو واضح - ولما مات أبو بكر تزوجها على بن أبى طالب فولدت له يحيى (٢).

وأم كلثوم هى أصغر أولاد الصديق، وليست لها أيضا صحبة، إذ ولدت بعد وفاة أبيها (٣). وقد تزوجت فيما بعد طلحة بن عبيد الله - وهو تيمى من عمومة الصديق - وأنجبت منه عائشة بنت طلحة أجمل وهو نساء عصرها.

وكانت العلاقة بين السيدة عائشة وأبيها الصديق تقوم على الحب والثقة والاحترام فقد كان يراها ابنته الصغيرة الجميلة الذكية، وكان يراها زوجة للنبي الكريم ﷺ وأحب الناس إليه، وكان يراها أما للمؤمنين قد زكى رسول الله ﷺ علمها بالحديث والفقہ، ولذلك كله كان الصديق يحبها ويجلها ويثق بها، فيناديها: «يا أمه» (٤)، ويسألها فى أمور الدين ويأخذ بقولها (٥)، ويروى عنها الحديث (٦)، كما كان يعطف عليها ويقول:

(١) أسد الغابة ٤/٤٦٩

(٢) المصدر السابق ١٠٢/٥ - ١٠٣

(٣) المصدر السابق ٧/٣٨٣

(٤) العقد الفريد ٤/٢٦٥ - ٢٦٦

(٥) البخارى ٢/٤٢٩ - ٤٣٠/١٢٥٤

(٦) الاجابة ٧٥

«انظري حاجتك فاطليها إلي»^(١) ويقول لها: «يا بنية، ما من الناس أحد أحب إليّ غنى بعدى منك، ولا أعز عليّ فقراً منك»^(٢)، كما نحلها - حال حياته - جداد عشرين وسقاً من ماله^(٣).

وأُم السيدة عائشة هي أم رومان^(٤) زينب^(٥)، بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتاب بن أذينة بن دهمان بن الحارث بن غنم بن مالك بن كنانة^(٦). وقد زكاها النبي ﷺ بقوله: «من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان»^(٧)، ونلاحظ في هذا القول الشريف بشارة نبوية لها بالجنة وشهادة بالصلاح والجمال.

ولقد كانت أم رومان من المسلمات الأول في مكة، بايعت النبي ﷺ وهاجرت إلى المدينة مع آل أبي بكر وآل النبي ﷺ. وتوفيت سنة ست للهجرة، ونزل رسول الله ﷺ في قبرها^(٨).

ملاحح شخصيتها:

كانت السيدة عائشة رضي الله عنها قوامه دائمة العبادة والتهجد^(٩) وكانت صوامه تصوم الدهر^(١٠) ولا تفطر إلا يومى الفطر والأضحى،^(١١) وكانت قنوعاً راضية زاهدة في متاع الدنيا، واقترن زهداها في الحياة بالعطف على الفقراء والمساكين والإحسان

(١) ابن سعد ١٢٩/٨

(٢) مالك - رواية محمد بن الحسن ص ٢٨٦

(٣) مالك - رواية يحيى ص ٧٥٢، عبد الرزاق ١٦٥٠٧/١٠١/٩

(٤) أم رومان: بفتح الراء وضمها، ذكر ذلك الزركشى في مقدمة كتاب (الاجابة) ص ٣٨

(٥) سيرة ابن هشام ص ٢ ص ٢٩٩

(٦) تهذيب التهذيب ٤٣٣/١٢، أسد الغابة ١٨٨/٤، الاستيعاب ١٨٨١/٤

(٧) أسد الغابة ٣٣١/٧، ابن سعد ٢٠٢/٨

(٨) تفسير القرطبي ١٩٧/١٢، تفسير ابن كثير ٢٤/٦ الاجابة ٣٩

(٩) عبد الرزاق ٤٥٤/٨ / ١٥٨٨٧

(١٠) ابن سعد ٤٧/٨

(١١) عبد الرزاق ١٥٧/٤ / ١٣١٠

إليهم، وكانت جوادة كريمة كثيرة الصدقات، حتى ليراها ابن أختها عروة بن الزبير ذات يوم وهي تصدق بسبعين ألفاً وأنها لترقع جانب ثوبها(١)، وسألها مسكين وكانت صائمة وليس في بيتها إلا رغيف واحد فأعطته إياه.(٢)، وبعث لها عبد الله بن الزبير بغرارتين مملوئتين بالمال فيهما مائة ألف، فجعلت تقسم المال في الناس، وكانت صائمة في هذا اليوم، فلما حل وقت إفطارها لم تجد شيئاً لأنها نسيت أن تستبق لنفسها درهما واحداً تشتري به طعاما لها (٣). وهكذا كانت لا تمسك شيئاً مما جاءها من رزق الله إلا تصدقت به(٤).

ولكن الشخصية الحقيقية للسيدة عائشة تتكون من أخصر أخلاقية خاصة بها وتميزها عن سواها، ويعد الصدق أبرز عنصر في شخصية السيدة عائشة، وهو اللون الأساسي الذي اصطبغت به أخلاقها، ولقد كانت في ذلك ابنة أبيها الصديق حقاً، كان أبوها صديقاً، وكانت هي مثله صديقة، وليس هناك أدل وأبلغ على هذه الحقيقة من ثبوت عدم تورطها في قضية وضع الأحاديث وخاصة السياسية منها المتعلقة بالفتنة وأحداثها التي استفحلت في ذلك الزمن، فعلى الرغم من أن السيدة عائشة كانت قد أبت - دفاعاً عما تعتقده من الحق - إلا أن تشترك في الخصومات والمعارك، وكانت ضالعة في الخلافات السياسية ضلوعاً عنيفاً وصل إلى درجة المواجهة العسكرية السافرة - إلا أنها - وهي في خضم هذه الأحداث الدامية والصراعات الرهيبة - لم تقل قط في كل ما ثبتت صحة نسبته إليها حديثاً واحداً موضوعاً، أو حتى تمسه الشبهات من قريب أو من بعيد، ولم تضع حرفاً واحداً لتؤيد به دعواها وتخزي به دعاوى خصومها، ولم تحرف كلمة واحدة إلى غير موقعها أو إلى غير معناها.

بل وأعظم من ذلك أنها كانت إذا روى أمامها حديث أو وصل إلى سمعها أو إلى

(١) ابن سعد ٤٥/٨، الزهد ١٦٥

(٢) الموطأ - رواية يحيى - ٩٧٧

(٣) ابن سعد ٤٦/٨

(٤) البخاري ٣١٣٤/٨/٦

علمها حديث فتجد فيه سوء فهم من رواية أو توهم سمع أو لبس أو سهو، فلا تطيق إلا أن تبادر فتصيح به وتنبه على ما فيه فى جرأة شجاعة وعلم أمين، حتى لقد كان مسروق حينما يروى عنها يقول: «حدثتنا الصديقة بنت الصديق»^(١)، وذلك على الرغم من أنه كان خصما سياسيا لها يدين خروجها ضد علي.

وإننا ليشدد تبجيلنا لهذه السيدة الصديقة حينما كانت تسئل عن رأيها فى علي بن أبى طالب، فتجيب بكل الصدق والشجاعة - وبينهما ما بينهما - «إن كان ما علمت صواما قواما»^(٢).

وبقدر ما كانت السيدة عائشة شديدة فى الحق حريصة عليه بقدر ما كانت شريفة فى خصومتها، فهى على سبيل المثال - على الرغم مما كان ينشب بينها وبين أزواج النبى ﷺ ما ينشب عادة بين الضرائر - لم تكن تذكر احداهن إلا بالخير والثناء الجميل، فتقول مثلا عن السيدة ميمونة: «إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم»^(٣)، وتقول عن السيدة زينب: «ولم أر امرأة قط خيراً فى الدين من زينب وأتقى لله عز وجل وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى تصدق به وتقرب به، ما عدا سورة من حدة كانت فيها تسرع منها الفئحة»^(٤). ولعلنا لاحظنا مدى الصدق والموضوعية فى كلمتها عن السيدة زينب، فهى تذكر محاسنها كما تذكر هناتها، ولكنها تقدم المحاسن على الهنات، وتسهب فى ذكر المحاسن وتوجز فى ذكر الهنات. وهذا الشرف فى الخصومة عندها إنما هو أثر طبعى لصفة الصدق التى تأصلت فى نفسها، ولصفة الحياء أيضاً التى اتصفت بها، حتى لقد كانت تدخل الحجر التى دفن فيها النبى ﷺ وهى غير محتجبة، فلما دفن معه أبوها الصديق كانت تدخلها أيضا غير

(١) ابن سعد ٤٥/٨

(٢) الترمذى ٣٧٥/١٠

(٣) ابن سعد ٩٩/٨

(٤) النسائى ٦٤/٧ - ٦٦.

محتجبة، وكانت تقول في ذلك: إنما هما زوجي وأبي. فلما دفن معهما عمر بن الخطاب كانت لا تدخل هذه الحجرة إلا إذا شدت عليها ثيابها وحجابها حياء من عمر^(١). ولقد دخل عليها أعمى فاستمهلت حتى تحجبت فتعجب من ذلك، فقالت له: «إن لم تكن ترانى فإنى أراك»^(٢).

وفى نفس الوقت، كانت السيدة عائشة غير بعيدة عن العفو والرضا إذا وجدت نفسها أمام موقف أسر طيب ممن أساء إليها، فمثلا تورط حسان بن ثابت فى الخوض فى الإفك تورطاً شديداً كان جزاؤه أن كف بصره إنتقاماً من الله^(٣)، ولكن السيدة عائشة تجاوزت عنه وغفرت له، حتى لقد كانت تلقى له بالوسادة ليجلس عندها^(٤)، حدث ذلك منها أمام اعتذار حسان لها بشعر رقيق يقول فيه:

حصان رزان ما تزن بريية وتصيح غرثى من لحوم الغوافل^(٥)

وحدث ذلك منها أمام دفاع حسان عن النبي ﷺ بشعره حيث يقول:

فإن أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء^(٦)

لهذا تسامحت معه وقبلت عذره، لأنه اعتذر لها بشعر يسير مع الأجيال ويعيش مع الزمان ويعلن طهرها وبرائها على أسماع الدنيا، ولأنه كان يدافع عن رسول الله ﷺ ويدفع عنه أذى المشركين بشعره الذى كان يدحضهم به.

وأخيراً، فإن من أعظم صفات السيدة عائشة صفة الذكاء، فقد كانت فطنة نجية بعيدة النظر ثابتة الفكر، وتوهج ذكاؤها فى سائر مظاهر حياتها الاجتماعية والفكرية والسياسية، وهى فى تلك الصفة أيضاً تشبه أباه الصديق شهاً ملحوظاً.

(١) الحاكم ٧/٤

(٢) ابن سعد ٤٧/٨ .

(٣) البخارى ٣٤٦/٧ - ٣٤٧/٣٤٣

(٤) عبد الرزاق ١١/٢٣٧ - ٤٢١، تفسير الطبرى ١٨/٨٨

(٥) البخارى ٦/٣٥١

(٦) البخارى ٦/٣٤٣

حينما تزوجت رسول الله ﷺ كانت لا تزال طفلة صغيرة ساذجة تلعب بالعرانس (١). وبفرس له جناحان (٢). وتخبيء دماها وراء ستار حجرتها (٣)، وكانت تلهو مع الجوارى على باب الدار (٤)، وتأرجح على الأرجوحة (٥)، ولكن على الرغم من كل ذلك فقد ساعدها توقد ذهنها وسرعة بديتها على أن يكبر فهمها وتفكيرها وادراكها بمعدل أسرع من نمو جسمها واستحقت بذلك - عن جدارة - أن تكون سفيرة النبي ﷺ إلى عالم النساء فتبلغ عنه وتعلم المسلمات (والمسلمين أيضا) كثيرا من شئون الدين الدقيقة الحرجة مثل كيفية التطهر من دم الحيض ومن الجنابة، ومتى يكون ذلك التطهر، وماذا يحل للرجل من امرأته وهي حائض، وما حدود العلاقة بين مظاهر المعاشرة الزوجية وبين أمور العبادة من صلاة وصوم، حتى لقد كان النبي ﷺ يستحسن ذلك منها ويقول لها: «يا موفقة» (٦).

ومكناها ذكاؤها أيضا من أن تعى عن رسول الله ﷺ أكثر من ألف حديث شريف، وأن ترويه عنه بكل دقة، بل وأن تعى عنه جوهر الفتوى في كثير من مسائل الدين، حتى إنها كانت توظف ما حصلت عليه من علم نبوي في حل الكثير من المشكلات التي كانت تواجه المسلمين والمسلمات، فيهرعون إليها فتفتيهم برأيها الصائب السليم الذي أقامته على أعمدة راسخة من العلم النبوي الشريف بما أوتيت من قدرة كبيرة على الفهم الفقهى والاستنباط الشرعى كتلميذة نجية لرسول الله ﷺ، وقد انفردت بعدة آراء فقهية خاصة بها، تتم عن دقة فهمها وبراعة استنباطها. وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد عند حديثنا عن خصائص تفسيرها ومعاله في الفصل الثالث.

ومن ناحية أخرى، فقد كانت السيدة عائشة على فهم لسنة النبي ﷺ وعلى إحاطة كاملة بها، حتى أصبحت مرجعا أصيلا أساسيا في السنة النبوية الشريفة، وكان مشيخة

(١) ابن سعد ٨/ ٤٠ - ٤٢

(٢) أبو داود ١٣/ ٢٧٩

(٣) المصدر السابق نفسه

(٤) البخارى ٦/ ٢٠١ - ٢٠٢/ ٣٤٤٩

(٥) المصدر السابق نفسه

(٦) السمط الثمين ٣٤

الصحابة يسألونها ويجلون علمها وفقهها، وكانت هي توضح لهم ما قد يغمض عليهم فهمه من بعض الأحاديث أو ما يستشكل أو يلتبس عليهم منها، وكانت تستدرك عليهم ما قد يكونوا أخطأوا في فهمه أو أخذوه على غير وجهه وتردهم إلى صوابه وهكذا؛ حتى لقد استطاع الزركشى أن يجمع لها طائفة قيمة من استدراكاتها على الصحابة في كتاب خاص أسماه «الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصحابة».

زواجها من النبي صلى الله عليه وسلم:

بنى هذا الزواج على أساس بشارة إلهية من الله سبحانه وتعالى. فحينما توفيت السيدة خديجة، وجد الرسول ﷺ عليها وجدا شديدا حتى خشى عليه^(١)؛ فأراد الله أن يواسيه وأن يعوضه عنها؛ فأراه في المنام جبريل حاملا قطعة حرير خضراء ويقول له: «يا رسول الله، هذه تذهب بعض حزنك؛ وإن في هذه خلفا من خديجة، فاكشف عنها؛ فيكشف عنها فإذا هي صورة السيدة عائشة، ويقول له جبريل: هذه امرأتك، هذه زوجتك في الدنيا والآخرة، فيقول النبي ﷺ: «إن يك هذا من عند الله يمضه»^(٢).

ونحن نفهم هذه الرؤيا على حقيقتها الظاهرة، ونؤمن بأن رؤيا الأنبياء حق وأنها من عند الله، ولا نوافق العقاد على ما ذهب إليه من أنها مجرد تعبير عما كان في ضمير النبي ﷺ من نية الزواج، أو أنه كان يناجى نفسه بأمنيته في الزواج فطابقت السيدة عائشة مثال هذه الأمنية^(٣).

كذلك لم يكن زواج النبي ﷺ من السيدة عائشة من أجل «توطيد العلاقات» مع أبي بكر كما نجد في بعض المصادر القديمة وعند بعض الباحثين المحدثين، فنحن لا نعد هذا الزواج نوعا من المكافأة أو رد الجميل بعض للصديق نظير مواقف المخلص في خدمة

(١) ابن سعد ٤١/٨

(٢) انظر: البخارى ٢٠٢/٦، الترمذى ٣٧٨/١٠ - ٣٧٩، أسد الغابة ١٩١/٧، ابن سعد ٥٤، ٤٦، ٤٤، ٤١/٨.

(٣) الصديقة بنت الصديق ٦٣

النبي ﷺ، إنما الحقيقة أن العلاقة بين الرسول ﷺ وأبي بكر كانت علاقة صداقة إسلامية وثيقة لدرجة أن النبي ﷺ كان يختلف كل يوم إلى بيت أبي بكر، وكان - كما قالت السيدة عائشة - «لا يخطئه يوماً واحداً لا يزور فيه بيت أبي بكر، منذ أسلم أبي بكر إلى أن هاجر معه»^(١)، فلما توفيت السيدة خديجة فقد الرسول ﷺ بوفاتها العون والنصير، ووقف وحده في ميدان الدعوة متصدياً للكفار متعرضاً لأذاهم بعد أن كانت تمنعه منهم وتهيئ له أسباب الاستقرار المادى والمعنوى. ولم يجد النبي ﷺ أمامه من ملاذ وسكن بعدها إلا في بيت صاحبه أبي بكر المحب الوفى المخلص له وللدين. ومن هنا جاءت البشارة الإلهية بزواجه من السيدة عائشة ابنة صديقه الحميم محققة الراحة النفسية التي كان النبي ﷺ يفقدها، الأمر الذي يضمن استمرار الدعوة وسيرها في طريقها المنشود. ولذلك ساقى العناية الإلهية خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون إلى النبي ﷺ لتفانحه في موضوع الزواج وتعرض عليه سودة وعائشة فرضى ولم يمانع. وإذا فلم يكن أبو بكر ولا النبي ﷺ هو البادئ بالتفكير في موضوع زواج السيدة عائشة، وإنما كانت خولة بنت حكيم هي التي بدأت ففاحت النبي ﷺ وعرضت عليه سودة وعائشة، ولما وافق النبي ﷺ انطلقت إلى أبي بكر الذي يثبت هنا عدم وجود أى تفكير من ناحيته في موضوع المصاهرة بينه وبين النبي ﷺ وذلك حينما دهش من طلب النبي ﷺ يد عائشة، بعد أن كان يؤمن أشد الإيمان بأن الأخوة الإسلامية التي تجمعهم بالنبي ﷺ في حكم أخوة الدم الحقيقية، ولذلك قال لخولة: «وهل تصلح له؟ إنها بنت أخيه»، فأوضح النبي ﷺ لخولة الفرق بين الأخوة الإسلامية وأخوة الدم، وقال لها: «ارجعى وقولى له: أنت أختى فى الإسلام وابتكت تصلح لي»، فوافق أبو بكر^(٢)، ولكنه كان قد وعد بعائشة لمطعم بن عدى أن يزوجه لابنه جبير، إذ كان المسلمون لا يزالون يصهرون إلى المشركين رغبة فى أحسابهم من جهة^(٣)، ولأن الإسلام لم يكن قد

(١) ابن سعد ٥٤/٨

(٢) أسد الغابة ١٨٩/٧ - ١٩٠، الإصابة ص ٨ ص ١٧

(٣) تفسير الطبرى ٣٧٩/٢

فرق بينهم بعد من جهة أخرى^(١). وهنا يثبت أبو بكر مرة أخرى أنه لم يكن بالمبيت النية في تزويج عائشة من النبي ﷺ، ولم يكن بالمدير لذلك قط، كما يثبت أيضاً أنه جدير حقاً بلقب الصديق وأن يكون هذا اللقب علماً له. وذلك حين لم ينكح بوعده للمطعم حتى ولو كان في نكته برجل مشرك ظفرة بمصاهرة سيد الخلق رسول الله ذى الخلق العظيم، فذهب إلى المطعم أولاً، فألقاه تمتعاً من إتمام زواج ابنه جبير من عائشة، فاستيقن من عناد المطعم وامرأته للإسلام، وتأكد من استحالة عيش ابنته الصغيرة الحبيبة في بيت كفار معاندين، حينئذ فقط تحلل من وعده^(٢) وأرسل خولة إلى النبي ﷺ يرحب به^(٣).

وهذه الواقعة تنفى إدعاء وجود أى تفكير أو تدبير مسبق بين النبي ﷺ وأبى بكر، أو بين كل منهما ونفسه فيما يتعلق بالمصاهرة بينهما، مما يدحض إدعاء المستشرق التبشيري لامنس الذى صور له خياله المريض هذا الزواج بشكل متهافت وسخيف فى صورة صفقة سياسية واقتصادية واجتماعية لمصلحة أبى بكر لتكون أكبر معين له فى أعماله ولتكون تمهيداً له يملكه فيما بعد من الوصول إلى الحكم على رأس «الحكومة الثلاثية» حيث يخلفه عمر ثم أبو عبيدة بن الجراح^(٤).

والزواج عند العرب يومان: يوم الإملاك - وهو يوم العقد - ويوم البناء - وهو يوم الدخول - ولربما تم الأمران معاً فى يوم واحد^(٥) وقد جرى زواج النبي ﷺ بعائشة على عادة العرب، فحينما أرسل أبو بكر إلى الرسول ﷺ بعد أن تحلل من وعده للمطعم إذ تأكد من عناده للإسلام وعدم رغبته فى المصاهرة، جاء النبي ﷺ فعقد على عائشة،

(١) لم يكن قد نزل بعد قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾، فهو من الآية رقم ٢٢١ من سورة البقرة وهى سورة مدنية.

(٢) سير النبلاء ٢٩

(٣) السمط الثمين ٣٦

(٤) عائشة أم المؤمنين - د. زاهية قدورة ص ٢١٨

(٥) المصدر السابق ص ١٠٤

وأصدقها خمسمائة درهم^(١) وكان ذلك بمكة^(٢)، في شوال^(٣) السنة الثانية عشرة للبعثة النبوية، وكانت عائشة في ذلك الوقت بنت ست سنوات^(٤).

ولم يتزوج النبي ﷺ بكرةً غيرها^(٥)، ولم يتزوج امرأة أبواها مهاجران غيرها بلا خلاف^(٦).

هذا عن الإملاك أو يوم العقد، أما يوم البناء فلم يأت إلا بعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة بثمانية أشهر^(٧)، أى في شهر شوال^(٨) من مقدمة المدينة، وكانت عائشة في ذلك الوقت بنت تسع سنوات^(٩).

ولقد تقول بعض المستشرقين على زواج النبي ﷺ من عائشة ووصفوا هذا الزواج بأنه «الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء»^(١٠)، وقد قصرت نظرهم في ذلك وأخطأوا لأنهم يقيسون هذا الزواج بنظرة عصرية، أى بالقياس إلى ما يحدث فى عصرنا الآن حيث يتقدم سن الفتاة فى الزواج ولا تتزوج عادة إلا بعد أن تكون فوق الخامسة والعشرين أو فوق العشرين على الأقل نظراً للظروف الحضارية والطبقية والتعليمية الراهنة. ولكن على الرغم من اعتياد الناس لهذا الأمر إلا أنهم يستهجنونه ويستاءون منه ويتمنون لو زوجوا بناتهم صغيرات.

(١) النسائي ١١٦/٦ - ١١٨

(٢) عبد الرزاق ٤٨٩/٧ - ١٣٧٩٩٧/٤٨٩، ابن سعد ٥٤/٨، ١٥٦ - ١٥٧

(٣) النسائي ٧٠/٦، ١٣٠، الترمذى ٢١٥/٤، الدارمى ١٤٥/٢

(٤) البخارى ٢٠١/٦ - ٢٠٢ - ٣٤٤٩/٢، ٣٤٥١

(٥) سير النبلاء ١٨

(٦) الاجابة ٥٩

(٧) ابن سعد ٣٩/٨ - ٤٠ - ١٥٦ - ١٥٧

(٨) الترمذى ٢١٥/٤، النسائي ٧٠/٦، ١٣٠، الدارمى ١٤٥/٢

(٩) البخارى ٢٠٢/٦ - ٣٤٥١

(١٠) نساء النبي - د. بنت الشاطى ص ٧٦

وفات أولئك المستشرقين أن العرب في عصر الرسول ﷺ وما بعده لم تستنكر زواج الرسول ﷺ من عائشة على الرغم من مظهر فارق السن الكبير بينهما، ولم تر في ذلك عجباً، لأن العرب ألفت هذا الأمر تماماً، فقد تزوج عبدالمطلب جد الرسول ﷺ هالة الزهرية بنت عم آمنة والتي تقارب آمنة في السن في اليوم الذي تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه آمنة، وتزوج عمر بن الخطاب ابنة علي بن أبي طالب، وتزوج طلحة بن عبيد الله أم كلثوم ابنة أبي بكر التي ولدت بعد وفاة أبيها. وإذا فقد كانت مسألة زواج الرجل الكبير من الفتاة الصغيرة مسألة عادية عند العرب، وإلا كان كفارهم هم أول المهاجرين للنبي ﷺ وقد كانوا يتلمسون أى سبيل للطعن عليه ولو بهتاناً وزوراً.

وأخطأ هؤلاء المستشرقون حين استنكروا ذلك الزواج وظنوه مقصوراً على العرب وحدهم، وقد جهلوا - أو تجاهلوا - أن مثل هذا الزواج يعد مسألة عادية أيضاً عند غير العرب، وذلك بشهادة واحد منهم وهو المستشرق بودلى الذى يقول: «إن زواجا مثل ذاك كان ولا يزال عادة أسيوية. . وإن هذه العادة لا زالت قائمة فى شرق أوروبا، وكانت طبيعية فى أسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة، وإنها ليست غير عادية اليوم فى بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة»(١).

ونسى هؤلاء المستشرقون أو تناسوا أنها روت وحدها حوالى ألف حديث نبوى أوضحت فيها كثيراً من مسائل العبادات والحدود والأحكام الإسلامية، وأن لها الكثير من الفتاوى الفقهية التى اجتهدت فيها، وأنها استدركت على كبار الصحابة كثيراً من الأحاديث والمفاهيم الفقهية حتى أفرد أحد العلماء المسلمين كتاباً عنها فى ذلك(٢)، كما نسوا - أو تناسوا - الدور السياسى الملحوظ الذى لعبته السيدة عائشة على مسرح التاريخ العربى الإسلامى.

(١) الرسول - بودلى - الترجمة العربية ص ١٢٩

(٢) هو كتاب «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة» لبدر الدين الزركشى.

وقع المستشرقون فى ذلك كله لأنهم لم يلاحظوا الأمر بدقة، فهذه الفتاة الصغيرة قد نمت شخصيتها نمواً سريعاً رائعاً فى بيت النبوة ونضج وعيها وفكرها العلمى والسياسى والاجتماعى والدينى، بل نضجت أنوثتها وتفوقت دربتها بشئون الزواج الدينية الدقيقة حتى لتسألها إحدى النساء عن الحفاف، فتفتيها بقولها: «إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعى مقلتيك فتضعيهما أحسن مما هما فافعلي»^(١).

مع النبى صلى الله عليه وسلم:

قامت علاقة السيدة عائشة مع زوجها النبى ﷺ على محورين رئيسيين هما: الحب والتعلم.

دار محور الحب على حقيقة واضحة وهى أن النبى ﷺ كان يحب السيدة عائشة حباً كبيراً عظيم المدي، فلم يسأله أحد قط عن أحب البشر إليه قاطبة إلا وقال: عائشة^(٢)، وكان يناجى ربه فى حبها ويقول: «اللهم هذه قسمتى فيما أملك، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك»^(٣)، وحين نزلت آية التخيير^(٤) بدأ بها وأمرها أن تستشير أبويها^(٥)، بل تعدى حبه لها الدنيا إلى الآخرة، فأراه الله كفيها فى الجنة ليهون عليه موته، وقبضه بين سحرها ونحرها وفى بيتها وفى يومها، وامتزج ريقه بريقها فى آخر يوم له من أيام الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة. وهكذا صار حبه إياها علماً عليها فسميت «حبيبة حبيب الله» و«خليلة رسول الله»^(٦).

(١) ابن سعد ٤٨/٨

(٢) البخارى ٣٧٨٩/٤٩/٧

(٣) الدارمى ١٩٤٤/٢

(٤) قوله تعالى: «يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها... الأيتان ٢٨، ٢٩ من سورة الأحزاب.

(٥) البخارى ٤١٤٤/٣٧٥/٧

(٦) سير النبلاء ٥٩ - ٦٠، ٧٢

والأدلة كثيرة وعظيمة على هذا الحب الكبير الرائع: كان إذا افتقدها سمعته ينادى عليها بصوت خافت حنون: «واعروساه»^(١)، وكانت إذا مرضت اعتنى بها وزاد من لطفه معها^(٢)، بل أحس وكأن الألم به هو، فإذا عانت صداعا وقالت: وارأساه، قال لها: بل أنا يا عائشة وارأساه^(٣)، وكانت إذا بكت مسح دموعها بردائه الطاهر وبده الشريفة^(٤)، وكان يسبغ عليها من عطفه وحنانه فإذا وجدها تلعب بالعرائس فلا ينهرها ولا يروعها، وإنما يفرح بلعبها ويضحك لها حتى ترى نواجذه^(٥)، وإذا دخل عليها فوجدها تلعب بعرائسها استتر بثوبه منها^(٦) حتى لا تخجل منه وتمتنع عن اللعب، وكانت لها صويحبات صغيرات تشاركها اللعب بالعرائس فكن إذا رأين النبي ﷺ دخل خرجن وإذا خرج دخلن، فكان إذا دخل ورآهن طمأنهن وقال لهن برقة وهدوء: مكانكن، ولكنهن كن يستحين منه ويفرون خارج الحجره فيخرج ويسر بهن إلى عائشة ليلعبن معها^(٧) ولا يحرمها هذه المتعة. وهكذا كان يحب دائماً أن يدخل البهجة والسرور على قلبها، فتسبقه مرة ويسبقها مرة أخرى ويقول لها: هذه بتلك^(٨)، ويحملها على عاتقه لتشاهد الحبشة وهم يلعبون بالخراب فى صحن المسجد^(٩)، ويترك معها الجاريتين الأنصاريتين تغنيان لها وتدفنان فى بيته الشريف، ويلوم أبا بكر على انتهاره لهما^(١٠)، وكان يستمع بسرور إلى حكاياتها الساذجة كلما جلس أمامها ينصت وهى تحكى له حكاية أم زرع وأبى زرع^(١١)، وإذا رآها نائمة خرج لمهامه متسللاً بهدوء «انتعل رويدا،

(١) الإجابة ٦٩، السمط الثمين ٥٥

(٢) صرحت عائشة بذلك فى كافة رواياتها للحادث الافك.

(٣) الدارمى ٣٧/١ - ٣٨، السمط الثمين ٦٤

(٤) السمط الثمين ١٢٢

(٥) أبو داود ٢٧٩/١٣

(٦) ابن سعد ٤٤/٨

(٧) أبو داود ٢٧٩/١٣، ابن سعد ٤٠/٨ - ٤٥

(٨) أبو داود ٢٤٣/٧

(٩) البخارى ٩٧/٥ - ٦٢٠٥/٩٨

(١٠) البخارى ٣١٥٤/٢٠/٦

(١١) ابن ماجه ١٦٣/١، الحاكم ٥٧١/١

وأخذ رداءه رويدا، ثم فتح الباب رويدا، وخرج وأجافه رويدا^(١)، وذلك حتى لا يقض مضجعها، وإذا دعاه أحد إلى الطعام طلب منه أن يدعو معه عائشة أيضاً^(٢)، فقد كان يسره سرورها ويحزنه حزنها ويشعر بها متى رضيت ومتى غضبت^(٣)، وكان أكثر رحمة بها من أبيها نفسه وأرق بها منه، فإذا غضب منها أبوها وضربها وأدماها حال النبي ﷺ بينهما ولا م أبا بكر وغسل دمها عن ملابسها بيده الشريفة^(٤)، وكما كان النبي ﷺ يفيض عليها من حبه بحاراً فياضة من الرقة والحنان والعطف، كذلك انسحبت رحمته بها على شكل بركة نبوية شريفة على أمته الإسلامية بأسرها، فلم يحرم على المسلمين مثل هذه الأنواع من اللهو والغناء وسباق العدو، كما جعل من دعائه لها بالمغفرة دعاء لأمته كلها^(٥)، وجعل من دعوته عليها حينما غضب منها ذات يوم زكاة وطهوراً لأى مؤمنة أو مؤمن يغضب منه ويدعو عليه^(٦).

والذى يهمننا من ذلك هو أن هذا الحب الكبير أكسبها الحظوة لديه والشجاعة العلمية، مما أسفر عن وقوفها بصفة دقيقة على كثير من مسائل الدين الحساسة التى تتعلق بحقائق العلاقة الحسية بين الرجل وزوجته فى الإطار الإسلامى، وجعلها أحد المراجع الأساسية التى يرجع إليها فى ذلك.

أما المحور الآخر الذى دارت عليه العلاقة بين النبى ﷺ وزوجته السيدة عائشة فهو محور التعلم، فقد كانت تجلس أمامه مجلس التلميذة النابهة من أستاذها الكبير والسيدة المؤمنة أمام النبى المرسل.

(١) البخارى ٦/٤١/٢٣٥٢

(٢) ابن سعد ٨/٥٠

(٣) البخارى ٧/٣٤ - ٣٦ (طبعة الشعب).

(٤) النسائى ٧/٧٣ - ٧٥، وأجافه: أغلقه بهدوء وبطء.

(٥) النسائى ٦/١٥٨

(٦) البخارى ٧/٤٧ (طبعة الشعب)

(٧) ابن سعد ٨/٥٦، السمط الثمين ٥٠ - ٥٢

(٨) السمط الثمين ٤٨ - ٤٩

(٩) مسند أحمد ٦/٥٢

وقد تبدى ذلك واضحا فيما يأتي :

١ - استيعابها لوفرة وافرة من السنن النبوية الشريفة، حيث روت عن النبي ﷺ حوالي ألف حديث تشتمل على أغلب مسائل الفقه والتشريع .

٢ - فهمها الثاقب للسنة النبوية إلى الدرجة التي أصبحت بها المرجع العلمي الأول والأصيل لكبار الصحابة في كثير من قضايا التشريع والفتوى، فأثرت التراث الإسلامي بمجموعة نفيسة قيمة من استدراعاتها عليهم .

٣ - كشفها عن كثير من شئون الرسول ﷺ الخاصة في بيته رجلا وزوجا وإنسانا .

٤ - وصولها إلى مرتبة السفير النبوي إلى عالم النساء المسلمات فيما يختص بشئونهن الدينية الدقيقة، وفرجت بذلك كثيراً من مسائلهن الحرجة .

وسوف نتناول دور السيدة عائشة العلمية في هذه المجالات عند حديثنا عن تفسيرها القرآن بالسنة النبوية وذلك في الفصل الثالث .

حادث الإفك:

يعد حادث الافك أفظع حادث تعرضت له حياة السيدة عائشة الزوجية، فقد اتهمت في شرفها، وهي الزوجة الطاهرة العفيفة التقية التي تنتمي إلى أسرة شريفة ولم تعرف الدنس قط .

ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى براءة السيدة عائشة من فوق سبع سماوات طباق شداد، في ست عشرة آية كريمة متوالية مدوية، أعلن فيها براءتها وأثبت طهرها، وسح نفسه في تنزيهها كما سبح نفسه لنفسه في تنزيهه، وشهد لها فيها بأنها من الطيبات، ووعداها بالمغفرة والرزق الكريم، وجعل من براءتها هذه قرآناً يتلى في العالمين إلى يوم القيامة .

ونحب هنا أن نسجل أيضا براءة الإمام عليّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - مما نسب إليه من موقف معارض ومقولة سوء زعموا أنه قالها في حق السيدة عائشة إبان حادث الإفك .

إن سمو أخلاق الإمام على بن أبي طالب وعلو قدره في الإسلام حقيقة لا تقبل الشك، فهل يمكن أن نتصور أنه يقدم على تأييد اتهام السيدة عائشة؟ وما سبب ذلك الموقف الغريب المحير؟ وما الدافع العنيف الذي يدفعه إلى اتخاذ هذا الموقف؟

لنفترض أن السبب في ذلك هو أنه أراد أن يكيل لعائشة الصاع صاعين في محاولة منه لإرضاء زوجته السيدة فاطمة التي كانت تغار من عائشة غير مبعثها ما كانت تحتله عائشة في قلب النبي ﷺ من الحب العظيم الذي شاع بين الناس، وهي منزلة لم تكن تحتلها منه قبل ذلك سوى أمها السيدة خديجة. ولكن، هل يصل تعنت الإمام على في مجاملته لزوجته إلى هذا الحد الرذيل الذي يدفعه إلى طعن سيدة شريفة في عرضها، وهي زوج النبي ﷺ وابنة الصديق، خاصة وأنه لم يكن بالمفرط في مجاملة زوجته وترقيتها حيث لم نعرف ذلك من قبل في معاملته لها، بل أراد أن يتزوج عليها في حياة أبيها ﷺ.

وإذا افترضنا أن موقفه ذاك كان بمثابة إعلان السيدة عائشة بالزجر والتفريع إزاء ما كانت تسببه لأمهات المؤمنين من الضيق - كما يحدث عادة بين الضرائر - معتمدة في ذلك على حظوتها عند النبي ﷺ، فهل يتسق هذا الافتراض مع ما علمناه من علو خلق الإمام على؟ ثم ماله والكيد لامرأة من نساء النبي ﷺ والأخذ بثأر ضرائرها منها؟ وأي ناقة له أو جمل في مثل هذا الصنيع الذي يربأ الرجال الكرام بأنفسهم عنه وهو من أكرم الرجال؟ ولماذا يدس بأنفه في حياة نساء النبي ﷺ الخاصة؟ ولماذا يزج بنفسه في مشاكساتهن؟

وحتى لو افترضنا أن مقولته تلك في حق السيدة عائشة جاءت من باب النصيحة وليست من باب الاتهام فإن هذا الافتراض مرفوض لسببين:

أولاً: لأننا لا نستطيع أن نتصور علياً وهو إمام في الفقه والشريعة ينسى في تلك النصيحة أبسط قوانين الفقه الإسلامي التي لا تقسيم التهمة على المتهم إلا بعد التأكد من إثبات أدلتها عليها إثباتاً تاماً. ومن الواضح أن نصيحة على تلك تحمل في طياتها إشارة

قوية بالإدانة، مما لا يتوافق قط وروح الشريعة الإسلامية ويتعارض مع ذلك التحرز الشديد الذى أمر به الإسلام فى مثل هذه القضايا، حتى ولو مست من كن دون عائشة فى القدر وفى الثقة، ولا يعقل أن يغفل علىّ عن هذه القوانين التشريعية الإسلامية وهو الإمام العالم، أو أن يتغافل عنها وهو ذو الخلق الحميد.

وثانياً: لأننا لا نستطيع أن نتصور عليا وهو المشهور بذكائه وفطنته يجانبه الصواب فى تلك النصيحة، فليس من الإنصاف فى الإسلام ولا فى الأخلاق أن يطلق النبى ﷺ زوجته ذات الأصل الكريم والتي طغى حبه لها على كل الناس بمجرد ثوران شبهة لفظ بها بعض المنافقين الذين لم يألوا جهداً فى الكيد والوقعة بين النبى ﷺ وبين أصحابه وآل بيته، فهى مجرد شبهة لا أساس لها، وإقامة الطلاق بناء عليها فجيعة مريرة لقلب النبى ﷺ وحزن له طوال حياته لن ينساه أبداً، كما أن الناس لن يفهموا من تطليقها إلا أن النبى ﷺ قد أدانها وأنف من معاشرتها، ولن يصيبها العار فى ذلك وحدها فقط، بل سيلصق بها وبأبيها وصمة أبدية، بل إن الخطر قد يتعدى عائشة وأسررتها إلى الإسلام كله كدين وعقيدة، فيتخذ المنافقون والمرجفون من صدق حديثهم الذى أفكوا به وجعلوه سبباً للطلاق مطعنا فى صدق الدين نفسه وفى صدق النبى ﷺ ذاته. فهل يغيب ذلك كله عن ذهن الإمام علىّ وهو المشهور بذكائه وبعد نظره؟

لذلك كله لا نستطيع أن نصدق ما قيل عن موقف علىّ من حادث الإفك ومقولته فى عائشة، فليس فى خلقه ولا فى شخصيته ما يبرر ذلك على الإطلاق، ولم نجد له فى ذلك أى دافع ولا أى غرض.

ولقد برأت السيدة عائشة بنفسها على بن أبى طالب من ذلك حين حصرت أسماء المتهمين الذين أفكوا عليها ولم تذكر اسمه بينهم^(١).

وبرأته مرة أخرى حينما صرحت بأنه كان «مسلماً» فى شأنها، وقولها «مسلماً» جاء على روايتين^(٢): رواية بكسر اللام المشددة، ورواية أخرى بفتحها، والرواية الأولى من

(١) البخارى ٣٥١/٧

(٢) البخارى ٣٤٩/٧ هـ ٣

التسليم وإذا فهي تعنى أنه كان ساكتا فى شأنها إذ أن تسليم الأمر بمعنى السكوت، وأما الرواية الأخرى فمن السلامة، وإذا فهي تعنى أنه كان سالما من الخوض فيه .

وإن المتأمل فى الآيات الكريمة التى أنزلها الله فى براءة عائشة يجدها تبرئ أيضاً عليا من هذا الموقف، وذلك لأن الله تعالى قال: «إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم»، ثم قال فى الآية التى بعدها مباشرة: ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين﴾، فدل تتابع هاتين الآيتين على أن هناك نوعاً من التقابل بينهما، وأن الله تعالى قسم الناس فى موقف عائشة إلى فريقين ظاهرين: فريق أصحاب الإفك، وفريق المؤمنين، ولا ثالث لهما كما نرى بوضوح فى الآيتين الكريمتين، ومما لاشك فيه أن الإمام عليا كان من أوائل المؤمنين ومن أتقاهم، ولم نجد واحداً فقط من الناس يضعه مع من تولوا كبر هذا الإفك .

والذى يمكن أن نطمئن إليه هو أن ذلك الموقف كان من صنع الأمويين أو الشيعة، فالأمويون كانوا من ألد أعداء عليّ، وكان بعض خلفائهم يحاولون لصق التهمة به، فهذا هشام بن عبد الملك يتأول قوله تعالى: «والذى تولى كبره منهم»^(١)، فيقول فى غرور وتعصب وكذب وعناد: هو عليّ، ويمارى فى ذلك عاملين جليلين هما سليمان بن يسار والزهرى اللذان أكدا له أنه عبد الله بن أبيّ بن سلول، وليس عليا^(٢). وهذا عبدالملك بن مروان يبلغه أن عليا قال: «ما بدأت فى حق عثمان بشيء، ولئن شاءت بنو أمية لأباهلنهم»^(٣) عند الكعبة خمسين يمينا ما بدأت فى حق عثمان بشيء»، فيقول عبد الملك بن مروان: «أنى لا أحسبه صادقا»^(٤).

أما الشيعة فقد كانوا يكرهون السيدة عائشة كرها شديداً، حتى لقد جعلوا من لعنها وأبيها على لسان عليّ قرينة إلى الله، كما نرى فى كتابهم «مفتاح الجنان»، فلا غرو أن

(١) سورة النور/ ١١

(٢) الدر المنثور ٥/ ٣٢ - ٣٣

(٣) لأباهلنهم: لالاعتنهم. والمبالغة الملائنة.

(٤) العقد الفريد ٤/ ٣٠٢

يدسوا تهمة عائشة على لسان عليّ بدافع من سخطهم عليها لخروجها ضد علي في حرب الجمل التي زعزعت حكمه وعجلت بنهايته .

ومن ناحية أخرى فإنه لما يبعث الشك لدينا في التلفيق على الإمام عليّ ما نجده من تعدد رواة حادث الإفك واختلافهم واختلاط أقوالهم، حتى ليقول الزهري - وهو الذي حمل لنا عنهم هذا الحديث: «كلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا... . وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض^(١) . . . ، ولعل هذا الاختلاف والاختلاط هو السر في تلك الاضطرابات التي نلاحظها في وقائع حادث الإفك، كما لعلها كانت المنفذ الذي تسلت إليه مقولة عليّ المصنوعة وأقحمت فيه، وإلا لماذا لم يرد فيها ذكر فضل السيدة عائشة في التيمم؟ ولماذا لم يذكر موقف عمر بن الخطاب وهو الذي نصفها وزكاهها، كما لم يذكر إلا موقف عليّ؟

وهكذا نخلص إلى نتيجة واضحة وهي أن مقولة عليّ في حادث الأفك غير صحيحة، وأن عليا برىء منها كبراء السيدة عائشة من الإفك .

وقعة الجمل:

عما لاشك فيه أن المعلومات الخاصة بفتنة عثمان وحرب الجمل التي وصلت إلينا عن طريق المصادر العربية القديمة معلومات يشيع فيها الاضطراب والتناقض، ويضرب حولها الغموض أظنابه، وتختلط فيها الحقائق بالخيال وبالأهواء المذهبية والنوازع الشخصية .

وفي رأيي أن حرب الجمل تعد من أفظع الحروب المشثومة التي وقعت خلال التاريخ الإسلامي كله، فقد كانت أول حرب مريعة تقع بين المسلمين، ووقف فيها صحابة رسول الله ﷺ وقفه الخصوم والأعداء وجهاً لوجه، وانقسم المسلمون معهم شيعا وأحزابا . ومن الحقائق الثابتة أن السيدة عائشة لعبت دوراً أساسياً وبارزاً في هذه الفتنة

(١) البخاري ٦/ ٣٤٠ / ٣٦٢٨

لا يمكن لأحد أن يتغافل عن نتيجته المؤلمة. ولا نريد أن نقول الآن في تفصيل أمر هذه الحرب وما ترتب عليها من نتائج في حياة الأمة الإسلامية، فهذه على التحقيق مسألة تاريخية لا نملك أدوات البحث الحقيقي فيها، ومع ذلك فإن محاولة التمييز بين الأختيار والأشرار في هذه الحرب باتت صعبة عسيرة، بقدر صعوبة محاولة تفسيح الصلات بين الصحابة، وذلك بسبب ما أضافته الروايات المضطربة والمتعارضة والمنحولة في شأن أصحاب هذه الموقعة.

وفاة السيدة عائشة:

في ليلة الثلاثاء لتسع عشرة خلت من شهر رمضان سنة ثمان وخمسين للهجرة(١). أسلمت السيدة عائشة الروح إلى بارئها بعد حياة حافلة، ملأت فيها بصر التاريخ وسمعها، وتركتنا - نحن أبناءها - من بعدها نبحت في حياتها وفي سيرتها وندرس تأثيرها في تاريخ الإسلام السياسي والعلمي.

وقد دفنت ليلا بعد الوتر، وكان الليل مظلماً فلم يجد المشيعون بدأ من أن يحملوا جريدا فيه خرق غمسوها في زيت وأشعلوا فيها النار لتضىء لهم الطريق إلى المقابر، وازدحم الناس وتجمعوا حول النعش، ولم تر ليلة أكثر ناساً منها، ونزل أهل العوالي إلى المدينة، وبدت النساء وسط المقابر والنيران وكان اليوم عيد. وصلى عليها أبو هريرة وسط مقابر البقيع، ونزل في قبرها خمسة من آل الصديق، وركدت السيدة عائشة في قبرها بالبقيع(٢)، غفر الله لها، ورضى عنها وأرضاها.

(١) ابن سعد ٥٣/٨ - ٥٥

(٢) ابن سعد ٥٣/٨، ٥٥، عبد الرزاق ١/٧٠٤-١٥٩٣، ٣/٤٧١-٤٣٦٦، ٣/٥٢٥-٥٧٠